المحاضرة الحادية عشر
الحضارة المدنية ٢

المدارس

اقترنت الدعوة الإسلامية منذ بدايتها بالتعليم وكما أشرنا من قبل تُعبر أول آية نزلت من سورة العلق عن أهمية التعليم (اقْرَ أ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَق (٢)اقْرَ أ وَرَبُّكَ الأكْرَ م (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)

كما أشرنا من قبل للعديد من الآيات و الأحاديث النبوية التي تحث على طلب العلم.

كما هو معلوم كانت هنالك أعداد قليلة من العرب يعرفون القراءة والكتابة ومما يدل على ذلك استعانة النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى بدر لتعليم أبناء المسلمين مقابل الفداء كما أوضحنا من قبل.

وظلت المساجد تؤدي دورها كما ركز للعلم غلى ان قامت المدارس النظامية.

ومن الذين كانت لهم حلقات للدرس بمسجد المدينة ربيعة الراي، الذي أخذ عليه الامام مالك والحسن البصري وأشراف المدينة. كما كان مسجد عمرو بن العاص مركزا علميا تدرس فيه علوم القرآن والحديث والتفسير وعلوم اللغة

كما عقدت حلقات الدرس بجامع الكوفة كما أشرنا من قبل، ومن أقدم جلس للعلم في مسجد الكوفة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو الأسود الدؤلي، كما اشتهرت فيه أيضا حلقات سعيد بن جبير والكسائي والفراء.

وعقدت أيضا حلقات الدرس بمسجد البصرة وظهرفيه الخليل بن أحمد واضع علم العروض وأستاذ سيبويه إمام البصريين في النحو.

تدريبات

من أقدم جلس للعلم في مسجد الكوفة

١. الحسن البصري
٢. الخليل بن أحمد
٣. علي بن أبي طالب
٤. لكسائي

يُعد الخليل بن أحمد واضع علم:

١. الفقه
٢. التفسير
٣. العروض
٤. النحو

وقد ظهرت المدارس الإسلامية في أواخر القرن الرابع الهجري، وقد مرت بمراحل تمهيدية تمثلت في ظهورها في بداية الأمر في شكل دار للقراء بالمدينة المنورة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت مخصصة للدرس والقراءة، ثم ظهر 'الكُتاب' في عهد عمر بن الخطاب
رضي الله عنه وكان مخصص ا لتعليم الصبيان.

وتعددت أسماء أماكن التعليم في العصر العباسي فعرفت بمكاتب الصبيان والحوانيت وكان يتولى التعليم فيها مؤدب أو معلم.

المدارس: دور الحكمة

إلى جانب هذه الدور وجدت في العصر الإسلامي دور للعلم سميت ببيوت الحكمة التي أنشأها الخلفاء – كما تقدم- منها بيت الحكمة الذي أنشأه هرون الرشيد في عام ١٥٨ ه. وكان دارا للتأليف والترجمة والنشر يضم النساخون والو ا رقون والمترجمون.

كما اسس أبو القاسم جعفر بن محمد 'دار العلم' في الموصل وكان يملي فيها على الناس الشعر والفقه. وأسس الحاكم بأمر الله 'دار الحكمة' بالقاهرة التي كانت مكان ا لالتقاء الق ا رء والمنجمون وأهل اللغة والأطباء .

تدريبات

ظهر الكتاب في العهد:

١. الراشدي
٢. العباسي
٣. الأموي
٤. المملوكي

أُنشئت 'دار الحكمة' بمصر بواسطة:

١. صلاح الدين الأيوبي
٢. الحاكم بأمر الله
٣. قايتباي
٤. الصالح نجم الدين أيوب

المدارس: دور العلم الخاصة

ومن دور العلم الخاصة التي أُنشئت قبل المدارس 'دارالشريف الرضي' ببغداد التي كان ينفق فيها على الطلاب من ماله الخاص. ودار العلم التي أسسها الوزير أبوالنصر سابور بن أردشير ببغداد في عهد البويهيين (٣٨١ ه) وقد أوقف الوزير عليها الأوقاف وكانت مليئة بالكتب، ومن أشهر من قصد هذه الدار أبو العلاء المعري، وقد احرقت هذه الدار عند دخول طغرل بك السلجوقي

المدارس:

ومن دور العلم التي تم تأسيسها في المغرب 'بيت الحكمة' التونسي الذي أنشأه الأمير إبراهيم الأغلبي وجلب له العلماء من بغداد. وأسس الرستميون المكتبة المعصومة في تاهرت وكانت تضم ٣٠٠ ألف مجلد وقد خربت على أيدي الفاطميين بعد أن أخذوا منها ما يحتاجون من الكتب..

وفي قرطبة أقام الخليفة الحكم المستنصر مكاتب لتعليم أبناء الفقراء كما أسس المكتبة العظمى بقصر الخلافة ظهرت المدرسة كمؤسسة تعليمية في نيسابور بخراسان في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري فبنيت المدرسة البيهقية وبني بها أيض ا الأمير نصر الدين

سبكتكين مدرسة وكذلك بنى أخوه السلطان محمود مدرسة. ويشير الصفدي في 'الوافي بالوفيات' إلى أن أبابكر محمد بن الحسن قد أقام في نيسابور مدرسة قبل تأسيس المدرسة البيهقية.

كما أشار السبكي في 'طبقات الشافعية' إلى عدد من المدارس اقيمت أيضا في نيسابور قبل المدرسة البيهقية منها: مدرسة الأستراباذي والإسفراييني والبستي. وأشار الرحالة ناصر خسرو أنه شاهد

مدرسة في نيسابور أمر بتأسيسها السلطان السلجوقي طغرل بك.

يعود الفضل إلى نظام الملك في نشر المدارس في الشرق، كما في نيسابور وطوس وبغداد، وذلك بهدف مقاومة مذاهب الإسماعيلية المتطرفة في البلاد. وكانت نظامية بغداد هي التي أذاعت صيت نظام الملك ورفعت من شأنه.

أما مستنصرية بغداد فقد بنيت في عام ٦٣٠ ه وهيئت لتسمح بتدريس المذاهب الأربعة كما ضمت حجرات لسكن الطلاب.

وانتشر نظام المدارس من بغداد إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام حيث أسس نور الدين المدرسة النورية، ومن الشام نقل صلاح الدين الط ا رز إلى مصر. وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى أنه شاهد ٢١٢ مدرسة بدمشق و ٦ بحلب. كما اقيمت مزيد من المدارس بكل من بلاد الشام وحلب ومصر في العصر الأيوبي.

كما أنشأ صلاح الدين بالاسكندرية مجمعا ضم مستشفى ودار للمغاربة ومدرسة. وقد لاحظ ابن جبير اثناء زيارته للاسكندرية توفير خدمات التعليم والمأوى لمن يرغبون في التعلم. وقد أقام صلاحالدين حمامات للغرباء ومارستان ا لعلاجهم. ومن أهم مدارس القاهرة مدرسة السلطان حسن والمدرسة اليوسيفية والطيبرسية. وفي المغرب مدرسة البوعنانية بفاس ومدرسة الصهريج.

البيمارستانات: ' المستشفيات'

اهتم الخلفاء والوزراء بانشاء البيمارستانات كعمل من أعمال الخير والبر وكانت المستشفيات بجانب تقديمها للعلاج هي أيضا مستشفيات تعليمية لتدريس الطب. ويعتبر الوليد بن عبد الملك أول من بنى بيمارستانا للمرضى.

تدريبات

•أول من بنى بيمارستانا للمرضى هو:

١. هارون الرشيد
٢. المعتصم
٣. الوليد بن عبد الملك
٤. المأمون

يعود الفضل في نشر المدارس في الشرق ل:

١. هارون الرشيد
٢. الشريف الرضي
٣. نظام الملك
٤. المأمون

ويعتبر الوليد بن عبد الملك أول من بنى بيمارستانا للمرضى. ثم انتشر تشييد البيمارستانات بعد ذلك فشيد المعتضد لله المارستان العضدي ببغداد، وأسس نور الدين زنكي البيمارستان النوري بدمشق، وأسس المنصور قلاوون البيمارستان المنصوري، كما أسس يعقوب بن يوسف الموحدي المارستان الكبير في مراكش، بالاضافة إلى مارستان الإسكندرية الذي أسسه صلاح الدين الأيوبي الذي سبقت الإشارة إليه.

الخانقاوات والتكايا

خانقاه كلمة من أصل فارسي 'خانكاه' معناها دار التعبد وقد انتشرت الخوانق في شرق خراسات وبلاد الغزنويين كما حمل الغزنويون الذين لجئوا إلى الهند معهم ذلك النظام بعد قيام دولة المماليك في الهند. أقيمت أول خانقاه في الإسلام فيما يقرب من ٤٠٠ ه/ ١٠١٠ م. وقد اشارت بعض المصادر إلى أن الخوانق جزء أساسي من النظام الديني
للكرامية، وقد ازدهرت جماعة الكرَّاميَّة في خراسان وطبرستان وجرجان وغرب القدس حول قبر ابن كرام توفى ٢٥٥ ه/ ٨٦٩ م وكانت لهم خوانق
ويعتبر نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بداية تطور نظام الخوانق بظهور الشيوخ في نيسابور. وقد أدى ارتباط التصوف بالمذهب الشافعي ثم الحنفي إلى الانتشار الكبير والسريع للخوانق خارج إيران، فقد أنشأ السلاجقة في الربع التالث من القرن الخامس الهجري / الحدي عشرالميلادي مجموعة من الخوانق في دمشق وبلاد الشام.
ومن المرجح ان نظام الخانقاه له صلة بالصوفية وأنه انتقل من إيران إلى العراق والشام على أيدي الأتابكة ثم انتقل بعد ذلك إلى مصر على يد صلاح الدين الأيوبي ، فقد أقام صلاح الدين أول خانقاه في مصر وهي 'دار سعيد
السعداء' في عام ٥٦٦ ه/ ١١٧٠ م وكانت مخصصة للصوفية الشاميين.
وكان نظام تخطيط الخانقاه لايختلف كثيرا عن نظام المدرسة فقد كانت تشتمل على ايوانات بينها صحن، وهذا النظام أقرب لنظام الرباط، وتحتفظ القاهرة بعدد من الخانقاوات يرجع تاريخها إلى العصر المملوكي. وهي تضم صحنا مركزيا تحيط به الايوانات وخلوات الصوفية التي كانت عبارة
عن حجرات صغيرة.

اما التكيه فقد ظهرت بدلا من الخانقاه في العصر العثماني و هي تختلف في تخطيطها عن الخانقاه حيث تتكون من صحن مغروش بالاشجار تتوسطه نافوره و يحيط به مجنبات من الجهات الاربعه و خلفها غرف الد ا رويش حيث كانت تؤدي فيها وظيفة الخلوات. و يلحق بالتكيه مسجد صغير و من امثلة هذه التكايا تكية الدراويش المولوية وتكية عبد الله المغاوري المعروفة بتكية البكتاشية المخصصه للمذهب البكتاشي ويجتمع الدراويش بهذه التكايا لأداء الذكر.

الأسبلة والكتاتيب

كانت الأسبلة والكتاتيب في كثير من الأحيان تلحق المسجد و الخانقه قبل العصر العثماني و لم يوجد منفردا الا قليلا، و كان السبيل يعلوه الكتاب لتعليم الصبية من الأيتام وفقراء المسلمين القراءة والكتابة وحفظ القرآن.

وقد يتخذ السبيل شكل السلسبيل و هي لوح من الرخام مزين بتموجات بارزه توحي للناظر عندما يسيل الماء عليها كما لو كانت المياه لعين جاريه و تتجمع المياه في احواض الرخام و تساعد حركة المياه من خلال التموجات و تعرضها للهواء علي برودتها و جعلها مستساغه للشرب.

اما الكتاب فهو يوجد بأعلي السبيل و هو مدرسة يتعلم فيها الاطفال حفظ القرآن الكريم و القراءة و الكتابه و الكتاب عباره عن حجرة كبيرة يوجد بها في أغلب الأحيان خزانة لحفظ الكتب. وتكون الحجرة مفتوحه الجوانب لدخول الهواء و الضوء و من امثلة ذلك سبيل و كتاب خانقاه فرج بن
برقوق وسبيل و كتاب قايتباي.

الحمامات:

تعتبر الحمامات من أهم النشآت الدينية الإسلامية وكانت حمامات مصر و بلاد الشام تختلف عن حمامات المغرب والأندلس، حيث كانت الأولى تتكون من قطاعات حول صحن مركزي تعلوه قبة، في حين كانت تمتد في ألندلس
على محمور واحد. ويذكر المقريزي أن الفسطاط كانت تضم ١١٧٠ حمام ا . وقد أوردت المصادر أسماء بعض حمامات القاهرة من بينها حمام الفار وحمام أبي مرة وحمام السوق الكبير من عهد الوليد بن عبد الملك.

وبقيت من الحمامات الأثرية في القاهرة حتى اليوم: حمام بشتاك الناصري وحمام المؤيد اللذان يعودان لعصر المماليك، كما عثر في الإسكندرية على ٦ حمامات تعود إلى العصر الإسلامي من أجملها جميعا حمام الذهب الذي كان يتردد عليه الرجال والنساء، وفي كتاب وصف مصر لوحة تمثل حماما للنساء وحماما للرجال.

ويجد في بلاد الشام حمامان يعودان للعصر الأموي أحدهما حمام قصر عمرة الذي أشرنا له من قبل والثاني يسمى حمام الصرخ، يزدان برسوم جدرانية ملونة آدمية وهندسية.

ولم يتبق من حمامات طرابلس سوى ثلاثة حمامات، هي حمام النوري وحمام عزالدين وحمام الحاجب.

أما في المغرب والأندلس فقد تبق بقرطبة حمامان، ولم يتبق من حمامات أشبيلية التي تجاوزت الأف سوى حمام واحد. كما تبقت بعض الحمامات في طليطلة وغرناطة. وأكمل الحمامات التي وصلت إلينا من الأندلس حمام أمير البحر ببلنسية.

تدريبات

•تُعد 'دار سعيد السعداء' أول خانقاه اقيمت ب:

١. العراق
٢. بلاد الشام
٣. مصر
٤. الأندلس

ظهرت التكية بدلا من الخانقاه في العصر:

١. العباسي
٢. الأموي
٣. العثماني
٤. الايوبي

ص 160 - ١٧١